

كلما جلس الشيخ يوسف، ناطور البستان، تحت شجرته الظليلة أترق طويلاً وأخذ الدهش إذ صار يسمع منها في بعض الضحوات والعشايا أنغاماً مبهمه؛ فإذا مرت الرياح ازداد النغم مع حفيف الاوراق، وكاد يخيل اليه أن هذه البقعة من الارض التي فيها الشجرة تختلف عن غيرها بما ينساب الى سمعه منها، ولقد تحير الشيخ يوسف في أمر هذه الشجرة المغنّية، فان تناغمها كانت تنبعث رخيمة هادئة أشبه بالهديل حين يكون بعيداً عنها، فإذا اقترب منها أخذ الصوت يتخافت ويضول ثم يختفي بوضو له اليها .

لقد سمى ناطور البستان هذا شيخاً لتقشفه وزهده ولم يكن طاعناً في السن او ذا عمامة واعتكاف للعبادة، على انه منذ اتخذ ظل الشجرة مضجعاً له ومرحاً، كان يبدو ذاهلاً سادراً؛ فيتساءل بينه وبين نفسه عن سر هذا الصوت الذي ينطلق منها ولولا شجاعته التي يتحدث عنها في تلك البقاع لأوشك ان يتسرب اليه الخوف؛ غير انه غالب الحسبان والرجفان حتى غاب تساؤله على مر الايام تفادياً للارتياح في صحة حسه وسمعه .

كان الشيخ يوسف

يضطجع تحت شجرته الوارفة في اشهر الصيف فلا يسمع من أنغامها شيئاً، لكنه حين يغلبه النعاس او الاعياء تترامى اليه في سهوته أو منامه رناتها ويهدده تغريدها فيصحو مرتعشاً وهو يفرك عينيه ويهمهم، ثم يقلب شفتيه من العجب. وكاد يصيب الشيخ الخبال إذ تولع بما يحس ويسمع، وعان صحبه وجيرانه وجومه واطرافه وتحدثه مع نفسه هممة وهمساً فقالوا انه موسوس او معتوه، وكان ذهوله وشروده يساعدان المتقولين والمستهزئين، فاذا جاء بيت صاحب البستان حاملاً اليه بعض الثمار جلس في الدهليز مطرقاً مدنناً، فيسارع اليه الخدم لمعاينته ومجادبته الكلام، وتلمحه فتحة صاحب البستان وكانت في مطل صباها فتقبل عليه مشفقة مترفقة، مطأبطة لفاقة فيها طعام او حلواء، فيتلقاها الشيخ بابتسامه شكر وابتهالة دعاء الى الله بأن يحفظها من كل سوء، ثم يأخذ بدعوتها الى البستان حيث ترى الشجرة المغنية، فقسأله عنها ويقص عليها قصتها، فاذا ذهب من عندها تعلقت بامها والحت عليها بأن ترافقها الى البستان .

وازداد ولع الشيخ بشجرته فكان ذووباً على قصتها لا يعنيه في دنياه سواها ولا يعبا بلوم او تهكم من اجلها، وما كانت دنياه لتغربه بشيء او تزين له امرأ، فهو ذو زهادة مربعة وان

صح التعبير الرياضي قلت إنها مكعبة، فإن القوت اليومي للشيخ يوسف كان لا يتجاوز الرغيف الاسمر الجاف يبده بالماء ثم يتبلغ بقسم منه كلما ادركه الجوع مع قليل من البصل او الفجل الا ذهب لبيت صاحب البستان فإن قوته يومذاك يتغير .

ولقد شاقني هذه الاعجوبة التي سمعت خبرها من فتحة، فلما لقيت الشيخ ذات يوم عند باب البستان لم اجد بداً من سؤاله عن شجرته :

— أياكون في شجرتك يا عمي الشيخ عندليب يغرد فاذا سمعت اليها طار ؟

فأجاب وهو يرمي بنظرة شطر الشجرة:

— لا، لا . . . الصوت يأتيني وكأنه ترتيل او هديل، لكنني اسمعه انغاماً غير واضحة. ثم تنهد الشيخ يوسف وسكت، فعدت الى الاستفهام وانا اترضاه وأغريه بالكلام اذ كان به ضنياً، الا على من يركن لهم، فلما عاد الى نفسه سألته :

— هل سمعتك صحيح، او

انك اصبت باحدى اذنيك؟

فضحك مستهزئاً

مغمغماً، ثم قطب حاجبيه،

فزادت جبهته تجاعيد،

وغارت عيناه وهو يجيب

العود المسحور

قصة حبرية بقلم ودارسكا كيني

متحدياً بنبرة حادة :

— اسمع مشي النمل . . . واذا شئت البرهان فناديني

بصوت خافت لتجري سمعي . . .

وسار الشيخ خطوات فقلت له :

— كفى يا عم . . . قف ولا تبعد اكثر .

فلم يقف، بل تابع خطاه وحالت بيني وبينه اشواك مرتفعة

وخمائل متهدلة الغصون فناديته :

— يا عمي الشيخ يوسف . . .

وكان صوتي خافتاً لا يكاد يسمعه الا القريب مني، وما

راعتني الا انه اجاب بصوت جهير :

— نعم، ماذا تريدني ؟

— هل تسمعي حقاً؟ وما هو طعامك اليوم؟

— اسمعك جيداً وطعامي اليومي تعرفينه .

فسارعت الى الشيخ مبهوتة محلمة، واذا به يمسك

بيدي ويشير الي بالصمت والاصغاء وقد بدا كالسار المذعور،

ثم الوى برأسه وأشار باصبعه ومشى خطوات وهو يقول همساً :

— اسمعي، اسمعي جيداً، انها تغني .

فدوت بوجهي نحو الشجرة القريبة وانصت فوجدت الريح

تداعب اغصانها ، وورقها يلمع في الشمس بخضرتها ويهتز. كان هبوب
الرياح يعطي الاشجار لحناً مؤثلاً هو الخفيف الصافر، اما النغم
الموهوم فلم اسمع منه شيئاً. كنت اصغي وافكر، وكان ينصت
ذاهلاً شاردأ ، وكأنه نشوان او مجبول .

ووجدتني اذ ذاك منساقفة مع القائلين بان الشيخ موسوس
او تعناه وهم . كان طبيعياً مثل كل من كان في سنه لكنه اذا
خلا الى نفسه، وحياته كلها غدت خلوة وعزلة ، بدا كالمجذوب
المرتبط بالغيب .

وكانت فتحية بنت صاحب البستان تغدو معنا للزهوة في
بستانهم الجميل ، وكان النهر عن يمينه والطريق المعبد عن شماله .
اشتراه ابوها بثمان نجس لأن صاحبه الاول استغنى عنه وهاجر
بزوجته واولاده ، وبقي الشيخ يوسف ناظوراً لهذا البستان لم
يستبدل به ابو فتحية بستاناً آخر لأنه كان مشهوداً له بالاخلاص
والأمانة فاذا رأت فتحية هذا الشيخ الزاهد المتوحد، اخذتها الرأفة
به وأبت ان تسمع اي هزه به، بل امضها تقول عليه والتهمك ،
ودلفت اليه تستزيده من قصة الشجرة مأخوذة بهذه الاعجوبة ،
ومات الشيخ يوسف بعد سنين مأسوفاً عليه ولم يترك ذرية ،
فقد وهب حياته للارض التي احبها ، وللشجرة التي تعلقها في
آخر عمره ، وكانت كل بقعة من البستان بنتاً له او اختاً ،
وكل شجرة واحدة من اهله .

أحب الشيخ يوسف الأشجار والأزهار حباً عجيبياً ،
ومزج نفسه بالارض حانياً عليها منقباً وجهها من الحجارة
والقدارة ، وكان لأكثر الأشجار ذكرى مواليد عنده ، فبيديه
زرع طائفة منها ، غير ان تلك الشجرة الناعمة الظليلة كانت
محبوبته الغالية، ومن أجلها كان يكرم الأشجار بعنايته المعهودة،
وكان هو وحده يحس هذا الحب الحقي القوي الذي سعد به
حيناً وشقي حيناً راضياً حيران . وبما أثار العجب ان تجف
عروق الشجرة بعد وفاة الشيخ يوسف وتسقط أوراقها ، ولم
يمض عامان حتى يبست ولم يطق رؤيتها صاحب البستان فأمر
باقتلاعها وبيعها ، وكان دهشاً حين قطع الجذع وظهر البدن
أبيض اللون مورداً ، فعلا في الثمن ، وحملت الى بيته بقايا
الجذع والغصون ، لتكون من مئونة الشتاء .

وقد أسفت فتحية على الشيخ وشجرته ، وكانت تحدثني
عنها وهي مرتعشة باكية فقلت لها :

— ماذا أصابك يا فتحية ، هوني عليك ؟

فقلت وهي تنساب في الذكري وكأنها تتحدث عن عزيز
لديها مات واحترق جسمه بعد موته :

— كنا كلما ألقينا قطعة من تلك العيدان اشتعلت بسرعة

في الموقد ، وسمع لها نغم أشبه بذلك النغم الذي كان يصفه
الشيخ يوسف وهو يتحدث عن شجرته .

واغتربت فانتقطعت عني اخبار فتحية ، لكنني علمت من
بعيد أنها تعلمت الموسيقى وفضلت الفن على الزواج ، فلما عدت
الى الوطن رأيتني ذات ضحوة في بيت فتحية ، فمذ دخلت قاعة
الدار سمعت دندنة عود فتساءلت في نفسي :

— ترى ، بمن هذه النقرات الرائعة على العود ؟ هل تكون
فتحية ...

وتحقق تخميني ، لقد اقبلت فتحية وبيدها عودها ، فلما
رأيتني وضعته جانباً وجلسنا نتبادل الذكريات والأشواق ، ثم
رجوت منها ان تسمعي ضربها على العود ، فأخذته في حضنها
برفق وحنان وجعلت تداعب بريشتها أوتاره ثم تضرب ضربات
تهز الجوانح .

كانت الريشة بيدها أخف من لمح البصر ، وكانت أناملها
باليد الثانية على عنق العود تلعب لعبات سريعة اخاذاة ، ولما
انتهى اللحن الطروب ضمت عودها الى صدرها وكأنها تخشى
عليه الفراق ، ثم اعترها ذبول أخرجها عن طورها فقلت لها :

— ماذا أصابك يا فتحية ؟

قالت وهي تتأوه :

— العود ...

— وما شأن العود ، قولي ما الذي خطر ببالك الآن ؟
فانفجرت شفتنا فتحية عن ابتسامة فاترة ثم مدت يدها الى
عودها وقالت :

— انه يغني وهو صامت على المتكأ والريشة مغرورة بعنقه ،
أسمع له همهمة وكأنني حاملة او هائمة في شيء غائب او مجهول ،
وأسمعه وانا نائمة حقاً ، فاذا استيقظت كنت كالمشدهوه الشاردة ،
احس هذا في اعماقي كالصدى البعيد .

ودمعت عينا فتحية وعاودها الرجفان والذهول ، ولما
اخرجتها من هذا الكمد سألتها :

— من اين اشتريت هذا العود ؟

— من جوزة الحدباء بدمشق ، من عند المعلم فارس العواد
المشهور .

فاتصل خاطري من فوري بقصة الشجرة التي كانت شاغل
الشيخ يوسف وجعلت أتساءل في نفسي عن الشبه بين سرها
وسر العود ، ولم يكن لي مقصد بعد ترك فتحية الا لقاء معلم
العود الذي دلنتني عليه ، غير ان بعض المشاغل صرفتني عنه وبقي
بالي عند فتحية الى ان وجدتني ذات يوم وجهاً لوجه امام حاتمة القصة .

رأيت العواد بباب دكانه يتحدث مع قريب لي فداورت
وجاملت على غير طبعي حتى عرف اني صديقة لفتحية وجارة لها

قديمة، فجددني بشأنها وباروعة ما سمعت! فقد علمت منه انه علمها العود حتى أتقتت الضرب عليه وفاق فنها صوتها إذ أوتيت حدقاً بالموسيقى وملكيت القيادة من رنات الأوتار دون تعريداً الخنجرة . قال العواد : منذ صنعت لها العود الذي احبته وفضلته على الزواج تغيرت حياتها وكأنها خلقت خلقاً جديداً ، فزهدت في الزينة واهملت العناية بثيابها وشعرها واخذ يغيب جمالها الذي تعرفينه ، وصار يعترها بعد حين ذهول وشروء ، وكان مثل هذا الذهول والشروء يس شعوري وانا أنجر العود من خشبة لم أر لها مثيلاً في صناعتي ، كنت اصنع الأعواد من خشب الدردار ، لكنني لقيت ذات يوم عند جاري صانع الأمشاط شاباً يعرض عليه قطعة من الخشب وهو مزهوها وضين .

كانت في الليل تلمع على بصيص النور وكان فيها الفسفور ، وكان الشاب كلما غلا في الثمن ازدادنا رغبة فيها حتى اشتريتها واقتسمناها . وصنعت من حصتي عود فتحية واختصتها به لما رأيت من نبوغها في الفن ، وقد فرحت به فتحية ونسيت نفسها فيه ، ثم شكت إلي بعد شهر انها تحس وهي تضرب عليه كأن في صداه عزيز الجن ، فقلت لها هذا وهم تحسينه من شدة تعلقك بالفن فلم يعجبها قولي وانصرفت غير راضية ولا مقتنعة ، وعلمت بعد حين ان شيئاً من الهوس قد اصابها فهي تزعم لأهلها انها تسمع من عودها ألحاناً وهو ساكت ، وكانت تراه في منامها متبسماً لها من صفحة وجهه وخصاصه وان اوتاره كانت تهتز وحدها في احلامها فتهب طربة منجذبة ولا تلبث بعد قليل ان تحس فراغ روحها كما يحس السكران بين صحتين فتعود الى العود منساقاً بغريزة الفن والهيام فيه إن كان للفن غريزة .

ورأى اهلها ان يصرفوها عن عودها بالزواج ، طوعاً او كرهاً ، فقطعت كلام العواد وسألته :

— وهل رضيت ؟

فأجابني :

— إصبري ، انا آتيك بالكلام ، اختار لها اهلها زوجاً غنياً مولعاً بالسياحة والسفر ولا يفهم للفن معنى ، أطعموها به وزينوا لها لذة الرحلة والتنقل لعلها تهجر العود وتعلق بالجديد المجهول . تزوجت وكانت في الاشهر الاولى سعيدة راضية ، وبعد سنتين ارتدت الى عودها حتى كأنها كانت له عاشقة مفارقة ، فضاقت بها زوجها وجعل ينغص عليها هذا الولوج بالاتهام والتهديد ، على اني منذ زوجها قلت قتلها ...

فهلاني ما سمعت من العواد ، وطاف بي شرود رديني الى صور كانت تلوح لفكري حتى ذكرت آخر مرة لقيت فيها

فتحية مفتونة بعودها فقلت : مسكينة ..

فقال العواد :

— اسمعي ، لما ضج زوجها وكره عودها إذ وجده منافساً له وغريماً ومفسداً لحياتها طغى عليه الغضب فأمسك بالعود وخبطه في الأرض ثم داس قطعه المكسورة . منذ ذلك اليوم انتهت فتحية وهددت بالانتحار ان لم يطلقوها ، فسرحتها الزوج غير آسف ولا نادم ، وهي اليوم تعيش ذاهلة مخبولة ، ذهبت زهوة صباها وذوى جمالها وشاب شعرها وهي ما تزال في ريعان الشباب ، ولاحت في وجهها الوحشة واهملت العود ونسيت حتى اللحون .. لقد غدت امرأة مسلوقة اللب محترقة القلب ، لا ترضى بالقليل من الطعام الا غصباً وكرهاً ، فهي تذوب يوماً بعد يوم مثل شمعة تحترق في الظلام .

★

وسافرت الى مصر دون ان القى فتحية فان قلبي لم يطاوعني على ان اراها ولكنها لم تغب عن بالي ، وكنت اعجب لذلك العود الذي غير حياتها وأشفاها ، وبينما كنت اطالع صحفاً سورية وانا بصفاف النيل جمد نظري على خبر واحد قف له شعري وأحسست كأن عروقي وقف فيها الدم . كان الخبر يقول : « أمسكت الشرطة بالجرم الختفي الذي وقعت عليه التهمة في مقتل المطربة « نوال » تلك الفنانة التي وهبت صباها وجمالها للفن وكانت اعجوبة بذكائها وزهداها بالمال حتى ساق اليها القدر فتى طباشراً هام بها وردته ناصحة متأبئة كدأها فأرداها قتيلاً مأسوفاً عليها ، وقد مضى على اختفاء الجارم الاثيم عشر سنوات ، فاعترف للقضاة بانه قتلها غداً وثاراً لهواه الخائب ، واستطاع ان يخفي جثتها تحت شجرة في بستان لأبيه باعه بعد هذا الحادث » .

وقد وصف المطربة الشابة بانها كانت ربا العود ذات شعر ذهبي متهدل ، وعينين مكحولتين جارحتين فيها سحر وابهاء ، كانت تعني من جوارحها غناء فيه ألم دفين كأنه صدى القسدر المكتوب ، فأحببتها حباً ليس فيه امل وأعماني الغرام حتى استطعت ذات مساء ان أقرب اليها بالخطبة وكانت وحيدة في بيتها المظلم على بستاننا فردتني رداً أفقدني الوعي والصواب ولم اشعر الا بيدي تنقضان على عنقها ، وسرعان ما لفتت الجثة والقيتها تحت العتمة من الشرفة الى البستان ، ثم انسلت اليه وحفرت لها حفرة عميقة كبيرة متهدلة العصون ، فواريتها التراب وكنت إذ ذاك لا اشعر بفضاعة الجريمة بل احس الراحة الكبرى .

القاهرة و داد سكاكيني